العدل الإلهي والعقلانية

د. الأخضر شريط
جامعة الجزائر/الجزائر

مقدمة

يهدف هذا البحث إلى إبراز مفهوم العدل الإلهي كطرح نقلي تداولته الديانات السماوية والقرآن الكريم خاصة، حسب التفسير الذي قدمه صاحب رسائل النور من جهة. ومن جهة أخرى، إبراز مفهوم العقلانية كأطروحة قدمها الفكر الغربي لا سيما منه فكر "ما بعد الديكارتية"، وتناول هذا الطرح لمعالجته من نفس النظرة أي نظرة بديع الزمان النورسي. وأثناء ذلك سوف نركز على تحليل للعلاقة التي تربط بين المفهومين من نقاط تلاقي ونقاط اختلاف سالكين تدعيم كل ذلك بأمثلة من الواقع الذي عايشه صاحب الرسائل. كما أننا سوف نقيم بعد تفحص للعلاقة هذه بين العدل الإلهي والعقلانية النتائج التي توصل إليها من إجرائه لتلك المقارنة. فإذا كان العدل الإلهي محققا لما بين النقل والعقل من توافق فلماذا يتأكد العدل عن طريق العقلانية؟ وإذا كانت العقلانية تقيم فكرة العدل على أسس صحيحة فما مدى دقة هذه الصحة في الواقع العملي للأفراد والجماعات؟

وإذا كانت الفكرة أي فكرة العقلانية في طرحها للعدالة صحيحة فإلى أي مدى تصمد أمام فكرة العدل الإلهي؟

تلك هي الإشكالية التي نحاول أن نجيب عليها معتمدين ما جاء حول الموضوع في رسائل النور وهي المرجعية الأساسية. كما أننا نعتمد مرجعية العقلانية من مصادرها حتى نفي بالغرض غرض الوصول إلى نتائج مثمرة في بحثنا هذا.

ولسوف نتبع منهج المقارنة الذي سوف يغلب على بحثنا: مقارنة ما جاء من مفهوم للعدل الإلهي ومن مفهوم للعقلانية. من جهة ومن جهة أخرى سوف نعتمد الخطة التالية في البحث:

مقدمة

أولا: في المفهومين:

- في مفهوم العدل الإلهي.
- في مفهوم العقلانية.

ثانيا: العلاقة بين العدل الإلهي والعقلانية.

ثالثا: غايات وأهداف كل من العدل الإلهي والعقلانية.

أولا في المفهومين.

أ- في مفهوم العدل الإلهي.

عندما نعود إلى مصادر العدل الإلهي نجد كلمة عدل تعني"العدل والمعادلة يقتضي معنى المساواة ويستعمل باعتبار المضايفة والعدل والعدل يتقاربان، لكن العدل يستعمل في ما يدرك بالبصيرة كالأحكام وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ والعِدل والعديل في ما يدرك بالحاسة الموزونات والمعدودات والمكيالات، فالعدل هو التقسيط على سواء، وعلى هذا روي بالعدل قامت السماوات والأرض تنبيها أنه لو كان ركن من الأركان في العالم زائدا على الآخر أو ناقصا عنه على مقتضى الحكمة لم يكن العالم منتظما. والعدل ضربان: مطلق يقتضي العقل حسنه ولا يكون في شيء من الأزمنة منسوخا ولا يوصف بالاعتداء بوجه نحو الإحسان إلى من أحسن إليك وكفِّ الأذية عمن كف أذاه عنك وعدل يعرف كونه عدلا بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخا في بعض الأزمنة كالقصاص وأروش الجنايات، وأصل مالِ المرتد. ولذلك قال : ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ وقالوا جزاء سيئة سيئة مثلها، فسمي اعتداء وسيئة وهذا النحو هو المعنيّ بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ (النَّحل: ٩٠) فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن خيرا فخير وإن شرا فشر، والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه والشر بأقل منه، ورجل عدل عادل ورجال عدل يقال في الواحد والجمع، قال الشاعر* فهم رضا وهم عدل *وأصله مصدر كقوله : ﴿ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ (الطَّلاَقِ :٢) أي عدالة، قال ﴿وأمرت لأعدل بينكم ﴾ وقوله ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ﴾ فإشارة إلى ما عليه جِبلة الناس من الميل، فالإنسان لا يقدر على أن يسوي بينهن في المحبة، وقوله ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾ فإشارة إلى العدل الذي هو القسْم والنفقة، وقال ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا ﴾ (الْمَائِدَةِ : ٨) وقوله أو (عدل ذلك صياما﴾: أي ما يعادل من الصيام الطعام فيقال للغذاء عدل إذا اعتبر فيه معنى المساواة وقولهم لا يقبل منهم صرف ولا عدل فالعدل قيل هو كناية عن الفريضة وحقيقته ما تقدم، والصرف النافلة وهو الزيادة على ذلك فهما كالعدل والإحسان. ومعنى أنه لا يقبل منه أنه لا يكون له خير يقبل

منه، وقوله ﴿ بربهم يعدلون﴾ أي يجعلون له عديلا فصار كقوله: ﴿هم به مشركون ﴾ وقيل يعدلون بأفعاله عنه وينسبونها إلى غيره ،وقيل يعدلون بعبادتهم عنه تعالى، وقوله ﴿بل هم قوم يعدلون ﴾ يصح أن يكون على هذا كأنه قال يعدلون به، ويصح أن يكون من قولهم عدل عن الحق إذا جار عُدولا، وأيام معتدلات طيبات لاعتدالها، وعادل بين الأمرين إذا نظر أيهما أرجح، وعادل الأمر ارتبك فيه فلا يميل برأيه إلى أحد طرفيه، وقولهم وضع على يديْ عدلٍ فمثل مشهور".[١]

ب- **في مفهوم العقلانية**.

أما مفهوم العقلانية فهو من العقل وهذا الأخير يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم، يقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل ولهذا قال أمير المؤمنين رضي الله عنه: العقل عقلان مطبوع ومسموع ولا ينفع مسموع إذا لم يك مطبوع كما لا ينفع ضوء الشمس وضوء العين ممنوع وإلى الأول أشار صلى الله عليه وسلم بقوله "ما خلق الله خلقا أكرم عليه من العقل "وإلى الثاني أشار بقوله "ما كسب أحد شيئا أفضل من عقل يهديه إلى هدى أو يرده عن ردىً " وهذا العقل هو المعني بقوله ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ وكل موضع ذم الله فيه الكفار بعدم العقل فإشارة إلى الثاني دون الأول نحو: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ (البَقَرَةِ : ١٧١) ونحو ذلك من الآيات وكل موضع رفع التكليف عن العبد فإشارة إلى الأول. وأصل العقل الإمساك والاستمساك كعقل البعير بالعقال وعقل الدواء البطن وعقلت المرأة شعرها وعقل لسانه كفه ومنه قيل للحصن معقل وجمعه معاقل. وباعتبار عقل البعير قيل عقلت المقتول أعطيته ديته وقيل أصله أن تعقل الإبل بفناء ولي الدم وقيل بل بعقل الدم أن يسفك ثم سميت الدية بأي شيء كان عقلا وسمي الملتزمون له عاقلة وعقلت عنه نبت عنه في إعطاء الدية ودية معقلة على قومه إذا صاروا بدونه.. واعتقل رمحه بين ركابه وساقه، وقيل العقال صدقة عام لقول أبي بكر رضي الله عنه "لو منعوني عقالا لقاتلتهم " ولقولهم أخذ النقد ولم يأخذ العقال، وذلك كناية عن الإبل بما يشد به أو بالمصدر فإنه يقال عقلته عقلا وعقالا كما يقال كتبت كتابا ويسمى المكتوب كتابا كذلك يسمى المعقول عقالا والعقيلة من

---

(١) الراغب الإصفهاني ، معجم مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي ص ٣٣٦-٣٣٧

النساء والدر وغيرهما التي تعقل أي تحرس وتمنع كقولهم علق مضنة لما يُتعلق به..."[٢]

كل هذه المعاني اللغوية وغيرها جاءت لتوضيح معنى العقل. وأما العقلانية فهي بإيجاز استخدام العقل للفهم والإدراك. والمصطلح وارد حديثا إذ لا نجد في العربية معنى له ثابتا لأن كل المعاني اللغوية والغير اللغوية والتي أوردناها جاءت في معنى العقل والمشتقات التي اشتقت منها الكلمة وبمعنى آخر جاءت في معنى من معاني الأصول الأولى لكلمة عقل. ومن هنا بات لزاما علينا أن نحيط بمفهوم العقلانية قلنا أن اللغة والأصول اللغوية لا يوجد فيها ما يثبت المعنى الدقيق للكلمة ومن هنا قلنا كان المصطلح هذا وارد وحادث في اللغة العربية وببساطة يعني التاثير الفلسفي الذي يستخدم العقل في تفسيراته ثم إن المصطلح وارد من اللغات الأجنبية ولا أصل له في العربية ومن هنا إذا ما قلبناه على خصائصه فيها نجده يعني أي rationalisme أنه في الأصل اللاتيني من ratio : « raison » أي العقل وفي الفلسفة نمط من التفكير المستعمل للعقل في النشاط المعرفي، غالبا ما يكون معارضا لتيار التجريبية التي تؤكد على دور التجريبة وبالخصوص على الإدراك الحسي.

غالبا ما ظهرت العقلانية في عدة أشكال لمراحل الفلسفة الغربية حيث طغت العقلانية في فكر أفلاطون أو سقراط وحتى أيضا في النسق السوفسطائي وفي النسق الصوفي وإلخ..تماما حيث العقل يسمح بتحريك التفكير في خطاب ما وبهذا المعنى فإن دلالة العالم تكون ممكنة: إن العقل هو اللوغوس، وهو اللغة: la raison est *logos,* langage. غير أن الأعراف العقلانية تؤهل خاصة التيار الفلسفي المؤسس في القرن السابع عشر من طرف رينيه ديكارت.[٣]

فإذا كان الفكر الغربي قد استعمل العقل من معنى من المعاني التي ذكرناها في المتن الخاص بذلك وإذا كانت العبقرية الإسلامية قد استعملت أيضا العقل من معنى من المعاني التي ذكرناها فإلى أي مدى جاء مفهوم كل من العدل الإلهي ومفهوم العقلانية متناسقين في رسائل النور التي حلل فيها بديع الزمان النورسي هذه المفاهيم؟

ثانيا العلاقة بين العدل الإلهي والعقلانية:

---

(٢) الراغب الإصفهاني ، معجم مفردات ألفاظ القرآن ، تحقيق نديم مرعشلي ،دار الكتاب العربي ص ٣٥٤

(٣) Microsoft ® Encarta ® 2006. © 1993-2005 Microsoft Corporation. Tous droits réservés.

يستخدم النورسي تحليلا عقليا لمسألتين مهمتين في العدل الإلهي: هاتان المسألتان هما:

– مسألة ميزان الحسنات والسيئات في اليوم الآخر. إن هذا الميزان كلما كان في كفتيه توازنا كلما كان الجزاء من جنس العمل من جانب رب العالمين، بمعنى أن الحسنات مثلا إذا ماتزايدت قد تأتي على السيئات. وفي هذه الحال لا بد من الإجهاز الكلي على كل ما هو سيئة في الحياة الأخروية. طبعا من أجل أن يستقيم ميزان العدل الإلهي.

– ومسألة أنه لا يجازي بالحسنة السيئة كما لا يجازي بالسيئة الحسنة إذا لا بد من توازن في الميزان حتى يجاز كل إنسان بحسناته كما يجازي كل إنسان بسيئاته فالعدل هنا عدل مقام في الآخرة وهو ما يرشدنا إليه سعيد النورسي لا سيما لما يطابق هذا المعنى في المعنى الذي يكون فيه العدل الإلهي مكتملا في الحياة الدنيا. بمعنى حتى يكون العدل عدل إلهي، فإن هذا الأخير لا بد وأن يتحقق في الدنيا، كما يتحقق في الآخرة. و إلا لا يكون القسطاس مستقيما إذا ما حاسبنا البشر على الأفعال يوم القيامة وتناسينا أن العدل الإلهي يكون عدلا في الدنيا وفي الآخرة. ومن هنا نرى أن النورسي كما أنه لا يذر أفعال الإنسان تذهب سدى في الحياة الآخرة فكذلك لا يذرها تذهب سدى في الحياة الدنيا. وبتعبير آخر -كأنه يقول- كما أنه يوجد عدل إلهي في الحياة الأخرى، فإنه هو الآخر يوجد عدل إلهي في الحياة الدنيا، وهو ما يشير إليه النورسي بقوله:

"انه يحجب بسيئةٍ واحدة للمؤمن جميعَ حسناته. فالذين يلقون السمع إلى هذا الكيد الشيطاني من غير المنصفين يعادون المؤمن. بينما الله سبحانه وتعالى عندما يزن أعمال المكلّفين بميزانه الأكبر وبعدالته المطلقة يوم الحشر فانه يحكم من حيث رجحان الحسنات أو السيئات. وقد يمحو بحسنة واحدة ويُذهب ذنوباً كثيرة. حيث أن ارتكاب السيئات والآثام سهل ويسير ووسائلها كثيرة. فينبغي إذا التعامل في هذه الدنيا والقياس بمثل ميزان العدل الإلهي، فان كانت حسناتُ شخصٍ أكثر من سيئاته كميةً او نوعيةً فانه يستحق المحبة والاحترام. وربما يُنظر إلى كثير من سيئاته بعين العفو والمغفرة والتجاوز لحسنة واحدة ذات نوعية خاصة."[٤]

(٤) بديع الزمان سعيد النورسي ، رسائل النور، اللمعات، اللمعة الثالثة عشرة – ص: ١٣٤

والنورسي يستخدم البرهان العقلي على أطروحة العدل الإلهي: هذا البرهان الذي يستند فيه من جهة إلى الواقع ومن جهة أخرى يثبت به عالم من عوالم الغيب. فالعدل الإلهي في نظره لا يستقيم لو أنه ما حاسب الإنسان على أفعاله في الدنيا وتركها فقط للآخرة. بل إنه يقيم عدله المطلق من هذه الدنيا .(ونحن عنه غافلون) ويتم العمل نفسه أي إقامة العدل بين البشر وبين كل ما خلق من العالمين عالم الجن وعالم الإنس في الآخرة. وهذا منتهى العدل الإلهي. وكأن العدل الإلهي في الدنيا والذي يقيمه الله سبحانه وتعالى (ونحن لا نبصره، أو نحن عنه غافلون) يرى فقط أكثر في الحياة الأخرى أكثر لأن الحياة الأخرى يكون الامتحان والاختبار قد نفد في الدنيا ومع النتائج يظهر أكثر الميزان، القسطاس المستقيم، ومنه فهو يرى أكثر. ومن هنا فالعدل الإلهي يدرك بالبصيرة[٥] في الدنيا ويدرك بالبصر في الآخرة وفي كلتا الحالتين هو عدل مطلق لا يضاهيه عدل ومن هنا كان العدل عدلان كما يبدوا للبشر، ولكنه في حقيقته عدل واحد ممتد من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخروية.

والنورسي لما يقدم هذا التفسير فإنما يريد القول من خلاله أن العدل الإلهي مقام في الدنيا وهو نفسه دليل وبرهان وحجة عقلية على وجود العدل الأخروي. فهو كما قلنا يثبت هو الآخر في هذا النوع من البرهنة العقلية الحياة الدنيا بعدلها وبميزانها بالحياة الأخروية بميزانها وبعدلها وهي كما قلنا عدل واحد وفقط في الحياة الدنيا لا يرى للذين غشيت قلوبهم غاشية بينما يرى بالعين البصيرة للذين يتوفر لديهم ﴿وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾ وها هو يؤكد هذا المعنى يقول:

"إن الذي لا يعتقد أن أعمال الجن والإنس يوم الحشر الأكبر توزن بميزان العدل الإلهي، ويستغرب منها ويستبعدها ولا يؤمن بها، أقول لو تمكّن أن يتأمل فيما هو ظاهر مشاهدَ من أنواع الموازنة الكبرى أمامه في هذه الدنيا لزال استبعاده واستنكاره حتماً"[٦].

ثم إن أهم برهان يستخدمه سعيد النورسي على إطلاقية العدل ألإلهي، هو البرهان كما نقول نحن بالمثال، أو لنقول البرهنة بعالم الحس عالم الواقع، على عالم الدقة المتناهية في العدل. ذاك الذي سميناه العدل الإلهي المطلق وهذا العدل إنما يكون من

---

(٥) يدرك بالبصيرة في الحياة الأخرى لأن البصر يومذاك يون حديد بمعنى يكون ثاقبا ليرى الأمور بالشكل الذي هي عليه.

(٦) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون – ص: ٥٢٥

عـالم الشـهادة. لِمـا يقلـب بصـرنا (النورسـي) فـي هـذا الكـون وجمالـه، وهـذا الكـون وتناسقه، هذا الكون وجلاله. وكيف أن هذا التناسق وهذا الإبداع هو منتهى التكامل هـو منتهـى الإطلاقيـة فـي العـدل. وكيـف أن كـل ذلـك لا يجـور أحـده علـى الآخـر ولا يعتـدي أحـد علـى الآخـر. إن جمـال الموجـودات فـي تناسـقها وانسـجامها لـدليل قـاطع على منتهى العدل الإلهي وكيف أنه لا تظلم ولا يظلم فيه بين الموجودات، لما اتزنت ولما اتصفت به من جمال وفن وإبداع خلاق، لا يجار عليه أحد، ولا يجير عليه أي موجود من الموجودات.

وهو دليل أقره بعض الفلاسفة ومنهم الفيلسوف الألماني "كانت"[٧] الذي يقول في هذا المعنى شيئان يعجبانني في هذا الوجود :النجوم المرصعة فوق رأسي والقانون الخلقي في نفسي ".

ومعلـوم أن هـذا الأخيـر قـد أثبـت وأدل علـى وجـود الميتافيزيقـا (عـالم الغيـب) بالبرهـان الخلقـي المتمثـل بالقـانون والأمـر القطعـي ذاك الأمـر الـذي يمليـه الواجـب الخلقي[٨].

والفكـرة فكـرة التـدليل علـى أن العـدل الإلهـي إنمـا يعـود فـي الاقتنـاع بـه إلـى فكـرة وجود تناسق جمالي معياري بين الموجودات ولا يجور أحدهما على الآخر. وهنا كما نلاحظ منتهى الاستخدام للعقلانية تجلت هذه المرة في البرهنة والتي كما قلنا عنها البرهنة بالواجب الخلقي حسب كانت ولكنها هنا البرهان الصادر عن فكر العدل الإلهي التي لا يضاهيها أي عدل. يقول سعيد النورسي في هذا المقام: وانظر إلى الكون اجمع، لقد ضم العدل الإلهي جميع موجوداته تحت جناح ميزانه ويديم موازنة الأجرام العلوية والسفلية، ويعطيها التناسب والتلاؤم الذي هو أهم أساس للجمال، ويجعل كل شيء في أفضل وضع وأجمله، ويعطي كل ذي حياة حق الحياة، فيحق الحق ويحدّ من تجاوز المعتدين ويعاقبهم.. فشاهد الجمال الباهر جمال هذه العادلية الإلهية

جَلَّ جَلالُهُ الله أكبَرُ إذْ هُوَ العَدْلُ العَادِلُ الحَكَمُ الحَاكِمُ الحَكِيمُ الأزَلِيُّ الَّذي أسَّسَ بُنْيَانَ شَجَرَةِ هذِهِ الكَائِنَاتِ في سِتَةِ أيَّامٍ بأصول مَشِيئَتِهِ وَحِكْمَتِهِ. وَفَصَّلَها بِدَساتِير[٩] .

---

(٧) كانت إمانويل ١٧٢٤-١٨٠٤م فيلسوف ألماني صاحب الفلسفة العقلية النقدية.

(٨) لتفاصيل أكثر أنظر إمانويل كانت ،أسس ميتافيزيقا الأخلاق.

(٩) النورسي رسائل النور، الشعاع الرابع - ص: ٩٠

إن سعيد النورسي يتعمق في تحليل الروحاني ولكن هذه المرة بالعقلاني: ومن هنا يمكننا أن نقول أن الحدود الواضحة للعقل هي الحدود الظاهرة للعيان لكل البشر ومن هنا فلا يمكننا أن نقول أن استعمال العقل هنا هو مخل بالدور الذي يلعبه العقل قي حياة البشر بل وفي اعتقادنا فإن استعمال العقل في الموجبات مما خلق الله يصح واجبا وفرضا من فرائض الإسلام(١٠).

وهو لا يملك إلا أن يضرب لنا مثلا من التاريخ، تاريخ الفكر الإسلامي، وما تميز به من عقلانية يقولِ: "ان علماء علم الكلام وأئمة أصول الدين والمحققين الأفذاذ من علماء أهل السنة والجماعة، بعد إجراء تحقيقات وتدقيقات كثيرة حول العقائد الإسلامية وإقامة المحاكمات العقلية والموازنات في ضوء الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة، ارتضوا بدساتير في أصول الدين، تلك الدساتير تأمر بالحفاظ على مشرب رسائل النور الحالي، وتمدّها بالقوة. ومن هنا لا يستطيع أي احد حتى لو كان من أهل البدع وفي أي مكان كان الاعتراض على مشربنا، ولما كانت حقيقة الإخلاص محفوظة فيه حفظاً تاماً يستطيع أي نوع من أنواع أهل الإسلام الدخول في دائرة رسائل النور.(١١)

هذا التأكيد على استعمال العقل وهذا التأكيد على التدبر والتفكر والتفقه يدخل في نظر سعيد النورسي في الاستعمال الحقيقي للعقل حتى في الروحانيات كما قلنا لأن الروحانيات وإن كان مجالها هو عالم الغيب وهذا العالم ﴿إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (سُورَةُ الْجِنِّ : ٢٧/٧٢) فإن هذا الأخير لا يسلك هذا المقصد إلا من اليقين العقلي القلبي الذي يتكون لديه. وهذا الأخير إنما نافذته للتبحر في كل ذلك إنما هو العقل.

ولنعد الآن إلى فكرة العدل وكيف يستلها بطريق عقلاني من الروحاني. أعني من أهم مصادر التشريع الإسلامي. وقد ثبت ببراهين دامغة في أغلب أجزاء (رسائل النور):" أن فعل التنظيم والنظام الذي هو تجلٍ من تجليات اسم الحَكَم والحكيم، وان فعل الوزن والميزان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم العدل والعادل"(١٢).

---

(١٠) لتفاصيل أكثر انظر عباس محمود العقاد التفكير فريضة إسلامية دار المعارف القاهرة

(١١) الملاحق – ملحق أميرداغ/٢، ص: ٣٩٥

(١٢) بديع الزمان النورسي ، رسائل النور ، اللمعات، اللمعة الثلاثون – ص: ٥١٩

والملاحظ أيضا أن النورسي يحلل صفات مع صفات العدل والربط بين هذه الصفات والذات الإلهية، لهي فعلا من أمر التدبر والتدبير في الآيات القرآنية، في آيات الكتاب المقروء وهو القرآن وهي أيضا من التدبر في كتاب الكون الواسع: في كتاب عالم الشهادة.يقول" وان فعل التزيين والإحسان الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم الجميل والكريم، وان فعل التربية والإنعام الذي هو تجلٍّ من تجليات اسم الرب الرحيم.. كل فعل من هذه الأفعال، هو فعلٌ واحد، وحقيقة واحدة، تشاهَد بوضوح"[١٣].

وإذا كان العدل من صفاته فماذا عن العادل إذا كان هو الله نفسه. أوليس العدل اسم من أسمائه الحسنى. إن المسألة هنا تثير وتثير لكل عاقل وكل متدبر كيف تصبح الصفة هنا وهي اسم من أسمائه تعالى، منطلية على مخلوقاته. إن هذا مؤكد من المثال الذي يضربه لنا يقول:" لقد تراءت لي نكتة لطيفةٌ من لطائف هذه الآية الكريمة، ونور من أنوار تجليات اسم الله: "العدل" الذي هو اسم الله الأعظم، أو هو نور من أنواره الستة[١٤].

والملاحظة الأخرى التي يقف عندها النورسي هي أن العدل وإن كان اسم من أسمائه الحسنى فإنه صفة يتصف بها، وأثر ذلك واضح على مخلوقاته في الكون الفسيح، وما يتناسق فيه من تناسق وما ينسجم فيه من انسجام، وما يتوازن فيه من اتزان، وما يقدر فيه من تقدير، ومن ينتظم فيه من انتظام. أوَلا يدل كل ذلك على تجلي صفة العدل بل اسم العدل وهو اسم من أسمائه على ملكوته؟

يقول النورسي في هذا المعنى: "فتأمل في الموازنة الرائعة بين الشمس والكواكب السيارة الاثنتى عشرة التي كل منها مختلفة عن الأخرى، ألا تدل هذه الموازنة دلالة واضحة وضوح الشمس نفسها على الله سبحانه الذي هو "العدل القدير"؟[١٥].

كما يحيلنا إلى التأمل العقلي في ذاتك أيها الإنسان. وكيف ترى لك آيات العدل في تكونك الجسمي؟... في خلقتك؟ يقول: "ثم تأمل في أعضاء كائن حي من الأحياء التي لا تعد ولا تحصى، ودقق في أجهزته وفي حواسه.. تَرَ فيها من الانسجام التام والتناسق الكامل والموازنة الدقيقة ما يدلّك بداهة على الصانع " العدل الحكيم"[١٦].

---

(١٣) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون – ص: ٥٢٣

(١٤) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون – ص: ٥٢٤

(١٥) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون – ص: ٥٢٥

(١٦) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون – ص: ٥٢٥

ولا يكتفي بإعادة عملية التبصر العقلي في جسم الإنسان بل يرى أن العدل متجلي في كل الكائنات الحية وعند كل تدبر لأحد تظهر وتتجلى هذه الصفة من صفاته كأنها هي. كأن العدل في ذاته لما تحتوي عليه من كل ما يمت بصلة إلى العدل الإلهي يقول: "ثم تأمل في حجيرات جسم كائن حي وفي أوعية الدم، وفي الكريات السابحة في الدم، وفي ذرات تلك الكريات، تجد من الموزانة الخارقة البديعة ما يثبت لك إثباتا قاطعاً انه لا تحصل هذه الموازنة الرائعة ولا إدارتها الشاملة، ولا تربيتها الحكيمة إلا بميزان حساسٍ وبقانونٍ نافذ وبنظام صارم للخالق الواحد الأحد "العدل الحكيم" الذي بيده ناصية كل شئ، وعنده مفاتيح كل شيء. لا يحجب عنه شيء ولا يعزب، ويدير كل شيء بسهولة إدارة شيء واحد".(١٧)

ويعود النورسي ليؤكد على حقيقة دقيقة جدا لا تهضم إلا لمن كان له عقل سديد وينبه من غفل عن أن العدل الإلهي مما يتميز به أنه عدل كما قلنا في السابق ممتد من هذه الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى فالحياة حسبه حياة واحدة والعدل عدل واحد من الدنيا إلى الآخرة يقول في هذا المعنى:"ان الذي لا يعتقد إن أعمال الجن والإنس يوم الحشر الأكبر توزن بميزان العدل الإلهي، ويستغرب منها ويستبعدها ولا يؤمن بها، أقول لو تمكّن إن يتأمل فيما هو ظاهر مشاهدَ من أنواع الموازنة الكبرى أمامه في هذه الدنيا لزال استبعاده واستنكاره حتماً.(١٨)

ج- غايات وأهداف العدل الإلهي والعقلانية.

لا يختلف اثنان حول مسألة أن الغاية من الخلق نفسه حكمة لا يعلمها إلا الله. كما لا يختلف اثنان أن العدل أيضا حكمة لايحيط بها إلا الله. غير أن النورسي وباستخدامه للعقل في هذا الشأن المعياري أي الذي يدخل ضمن الدراسات المعيارية أي الدراسات التي تهتم بالأخلاق والجمال مثلا يتحدى هذا الطرح إلى الطرح الذي يدعو إلى استخدام العقل في الدراسات حتى المعيارية ومنها فكرة العدل الإلهي هنا ولنتأمل ماذا جاء عنها في رسم الغايات والأهداف من بسط العدل الإلهي.

إن النورسي يرى أن الصفات أو أسماء الله الحسنى متكاملة، وكل منها يكمل الآخر بل في خدمة الآخر. ولاحظ كيف أن العدل والحَكم متكاملان. ويتجلى ذلك من التأمل العقلي في مخلوقات الله سبحانه وكيف تتجلى صفة الحكم مع صفة العدل

(١٧) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون – ص: ٥٢٥

(١٨) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون – ص: ٥٢٦

مما يجعل الأسماء أي أسماء الله الحسنى كلها متجلية أيضا في هذا الكون وفي كل المخلوقات والعبرة هي للتأمل العقلي ولاستخدام العقل ولإدراك حقيقة هذه الأسماء فالأسماء كما قلنا متجلية في هذا الكون الفسيح لحكمة معلومة من الشرع بالعقل: يقول في هذا المعنى "ثم انظر من خلف التجلي الأعظم لأسم (الحكم) إلى التجلي الأعظم لاسم (العدل) - كما أوضحناه في النكتة الثانية - ترَه يدير جميع الكائنات بمجوداتها ضمن فعالية دائمة بموازينه الدقيقة ومقاييسه الحساسة ومكاييله العادلة بحيث يجعل العقول في حيرة وإعجاب، فلو فقد نجمٌ من الأجرام السماوية توازنه لثانية واحدة. أي إذا انفلت من تجلي اسم (العدل) لحلِّ الهرجُ والمرج في النجوم كلها ولأدّى – لا محالة - إلى حدوث القيامة." ....وان العدالة العامة الجارية في الكون النابعة من التجلي الأعظم لاسم "العدل" إنما تدير موازنة عموم الأشياء، وتأمر البشرية بإقامة العدل[١٩].

ويشد النورسي عقل الإنسان إلى حقيقة ما ينطلي على التجلي: تجلي العدل في المخلوقات ولربما كان أهم أثر هو ما سماه بالنظافة وما يمكننا أن نسميه بالصفاء والنقاوة. تلك هي أهم أثر ينطلي على العدل القدوس يقول:"فانظر الآن من خلف التجلي الأعظم لاسم الله (العدل) ومن خلاله، وشاهد التجلي الأعظم لاسم الله (القدوس) - الذي وضحناه في النكتة الأولى - تَرَ : أن هذا التجلي الأعظم لاسم (القدوس) قد جعل موجودات الكائنات نظيفة، نقية".[٢٠]

"وانظر إلى الكون اجمع، لقد ضم العدل الإلهي جميع موجوداته تحت جناح ميزانه ويديم موازنة الأجرام العلوية والسفلية، ويعطيها التناسب والتلاؤم الذي هو أهم أساس للجمال، ويجعل كل شئ في افصل وضع وأجمله، ويعطي كل ذي حياة حق الحياة، فيحق الحق ويحدّ من تجاوز المعتدين ويعاقبهم.. فشاهد الجمال الباهر جمال هذه العادلية الإلهية.[٢١]

وهكذا نلمس حقيقة التشابك والحبك المتين الذي يركز عليه النورسي بين ما هو ديني وما هو عقلي بل نلاحظ دائما أنه يعطي في كثير من المرات الأولوية للعقلي على الديني لا سيما في المسائل التي تتعلق بـ "أنتم أعلم بشؤون دنياكم" وهذا إن دل

---

(١٩) المصدر نفسه، اللمعة الثلاثون - ص: ٥٩٢

(٢٠) بديع الزمان سعيد النورسي : الشعاعات ،الشعاع الثاني - ص: ٣٥

(٢١) المصدر نفسه، الشعاع الثاني - ص:٩٠

على شيء فإنما يدل على أن النورسي يرغب كثيرا في استخدام العقل للتدبر وللتفقه في آيي الله الطبيعية والروحانية ومن هذا يمكننا القول أن النورسي من الذين يجعلون الدين قائم على العقل أو على التدبر القلي ومن هنا فلا بد من الاهتمام بفكر هذا العلامة لسبب أو لآخر ولأن الدين إنما جاء بالعقل وجاء بالتفقه في الموجودات على مختلف أصنافها.

والحصيلة التي يمكننا أن نصل إليها في بحثنا هذا أن النورسي عقلاني في طرحه لأمور الدين وهو ديني في طرحه لأمور العقل. ولا عجب في ذلك فهو صاحب رسائل النور والنور هنا هو العقل الثاقب لأمور الدين والمتفحص لها.

والخلاصة:

- أن العدل الإلهي – حسب سعيد النورسي لابد من عقلانية لتفحص وتتبع آياته إلى أن تنتهي إلى حجاب الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات والأرض.

- أن العدل الإلهي هو عدل مطلق وعدم معرفة بعضا منه لا يوجب التنكر للإطلاقية العدلية.

- أن العقلانية أو استعمال العقل واجب يمليه الشرع لتدبر آيات رب العالمين الكونية. ومنها آية من أعظم آيات الله وهي العدل.

- أن العدل الإلهي مبسوط كآيات في الكتابين: كتاب الهدى أي القرآن. وكتاب الكون، وهو الطبيعة بكل ما تحمل من معاني .

- أن العدل وهو اسم من أسمائه الحسنى، مع صفة –مثلا- الحكيم وهي أيضا اسم من أسمائه الحسنى تتكاملان: من حيث أن الحكيم (المقدر للأمور حق قدرها) هو أعدل بين كل هذه الأمور. لما تتداخل الصفتان معا: صفة العدل وصفة الحكمة.

- أن العدل الإلهي أهم ما يميزه هو عدل واحد ممتد من الحياة الدنيا إلى الحياة الأخرى. وكل ما حوسب عليه المرء في هذه الدنيا لا ينقص من محاسبة الله له يوم القيامة. وأن استعمال العقل قد يتوقف به على بعض العدل في الدنيا، ولكن إذا لم يتوقف به المرء على كل العدل. فهذا لا يعني سوى أن هذا الأخير لم يحسن استعمال العقل، ومنه فعقلانية الإنسان لا بد لها دائما من إرشاد هذه المرة إرشادا دينيا: هدي من الله سبحنه وتعالى.

- إذا ما تأمل الإنسان الكون (الطبيعة) إنما يكتشف العدل: لأنه صفة منطلية على مخلوقات العادل: وهي منطلية في الطبيعة المحيطة بالإنسان، وهي أيضا منطلية قي

الإنسان نفسه. فقط لا بد له من الاستعمال الجيد للعقل حتى يتدبر فيتفكر. ليكتشف صفة العظمة في العدل إذ أن هذا الأخير هي دالة على العظيم. بمعنى أن العادل لا يكون إلا عادلا.ومن هذا الأخير تتبدى لنا صفات العظمة في آياته الكونية لأنه وكما قلنا فإن العدل صفة مبثوثة في الكون .

– إن سعيد النورسي لا يفرق بين العقلانية (استعمال العقل) في الروحانيات (العبادات) والعقلانية في (الكونيات) إذ أن العدل كصفة تشملهم جميعا برحمته.

والله المستعان وإليه المآب.